١٥ السيدة سكينة
صاحبة أول ندوة أدبية فى الإسلام

السيدة سكينة بنت الإمام الحسين رضى الله عنهما، اشتهرت فى تاريخ الثقافة العربية بأنها صاحبة أول ندوة أدبية تقيمها المرأة، ويقف ببابها الرجال، وقد كان من بين هؤلاء الرجال.. فحول الشعراء فى تاريخ هذه الثقافة.

ولعل حق هذه السيدة سكينة رضى الله عنها فى هذا المجال قد أصبح محفوظاً، ليس على مستوى الثقافة العربية فحسب، وإنما على مستوى الثقافات الأجنبية أيضاً.

ولعل سبب شهرة ندوة السيدة سكينة رضى الله عنها فى التاريخ.. يرجع إلى مكانة وقيمة مَنْ كان يقصدها من الشعراء، وفى مقدمتهم «الفرزدق» و «كثير» و «جرير» و «جميل» و «عمر بن أبى ربيعة»، وما كان يصدر عنها من أحكام نقدية.. حتى كان الشاعر لا ينشر قصيدة على الناس قبل أن ينشدها داخل الندوة وتجيزها السيدة سكينة رضى الله عنها.

ولم تقتصر الندوة على الكلمة الشاعرة فحسب، وإنما امتدت إلى الاهتمام بكثير من فنون القول.. حتى إذا غطى اهتمامها الكلمة شعراً ونثراً انتقل إلى الكلمة لحناً وغناءً، حيث استوعبت ندوتها الموسيقى والغناء، وكان حكمها على كل ذلك مبنى على علم واسع، وإحساس صادق.

لكن لايمكن التعرف على جوانب من هذا الدور الثقافى المهم فى حياة السيدة سكينة خاصة، والثقافة العربية عامة، بدون معرفة شىء عن نشأتها الأولى فى بيئة طاهرة، تجل الكلمة شعراً ونثراً، وتقدر قائليها شعراء كانوا أو كُتَّاباً.. وإذا

ما تيسر ذلك فلا مناص من معرفة علاقة هذه السيدة الطاهرة بمجتمعها. وقبل كل ذلك علينا أن نتعرف على مسألة وجودها بمصر فى الضريح المقام بالمسجد المعروف باسمها بالقاهرة، على ضوء ما وصل إلينا من كتابات وروايات للعلماء والمؤرخين الأقدمين منهم والمحدثين.

اختلفت الروايات فى شأن وجود رفاتها الطاهرة فى الضريح المقام بمسجدها الموجود بحى الخليفة بالقاهرة، فى الشارع المسمى باسمها. فالإمام الشعرانى يذكر فى طبقاته: «أنه لما دخلت السيدة نفيسة مصر كانت عمتها السيدة سكينه رضى الله عنهما المدفونة قريباً من دار الخلافة مقيمة بمصر، ولها الشهرة العظيمة».

ويؤيد هذا القول ابن زولاق، حيث يسجل فى عيونه: «أن أول مَنْ دخل مصر من ولد على بن أبى طالب كرم الله وجهه سكينة بنت الحسين رضى الله عنهما، وذلك أنها حُملت إلى الأصبغ بن عبد العزيز بن مروان ليدخل بها».

وبقية الروايات التى تؤيد وجود رفاتها الطاهر بمصر تعتمد فى جملتها وتفصيلها على هذه القصة التى تناقلتها الكتب الحديثة عن الكتب القديمة والتى تروى: «أنه لما خطب الأصبغ السيدة سكينة رضى الله عنها. كتبت إليه تقول: « إن أرض مصر وَخِمَة، فبنى لها بمصر مدينة الأصبغ في منطقة يقال بجوار حلوان الآن، إلا أن هذا الأمر لم يَرُقْ فى عين الخليفة عبد الملك بن مروان، فخَيَّرَ ابن أخيه الأصبغ بن عبد العزيز بن مروان، الذى كان والياً على مصر وقتئذ قائلاً: إمَّا أن تأخذ ولاية مصر أو سكينة».

ويقول النسابه العبيدى: «إن السيدة سكينة صحبت عمتها السيدة زينب بنت الإمام على رضوان الله عنهم فى خروجها إلى مصر، حين أدرك الخليفة يزيد بن معاوية خطر مقامها بالمدينة، فأمر واليها أن يفرق بينها وبين الناس حتى لاتكون فتنة».

لكن فى المقابل نجد بعض الروايات ترى أن رفات السيدة سكينة رضى الله عنها موجود بالبقيع فى المدينة المنورة، وتعلق على هذه الروايات الدكتورة بنت الشاطئ فى كتابها عن السيدة سكينه قائلة: «وإنْ صحت هذه الروايات، فلعل السيدة سكينة قد عادت من مصر إلى الحجاز بعد وفاة عمتها السيدة زينب رضى الله عنها عام ٦٢ هجرية».

ويقول صاحب كتاب الأبصار: «لا عِبْرَةَ بالاختلاف فى دفن بعض أهل البيت ـ رضوان الله عليهم ـ الذين لهم بمصر مزارات.. فإن الأنوار التى على أضرحتهم شاهد صِدْق على وجودهم بهذه الأمكنة».

وأياً مّا تكون هذه الروايات التى تؤيد وجود الرفات الطاهر لهذه السيدة الفضلى بمصر، فى المسجد الذى بناه خصيصاً لها عبد الرحمن كتخذا عام ١١٧٣هـ وكتب عليه اسمها، أو التى ترى غير ذلك، فإن الثابت الذى لم يختلف حوله المؤرخون والرواة قديمهم وحديثهم، أن هذه السيدة الطاهرة قد شرفت أرض مصر مرة أو مرتين على الأقل، وربما نزلت وأقامت فى هذا المكان المقام عليها ضريحها بمسجدها بالقاهرة، وإلا فما معنى أن يُقام لها دون غيرها من آل البيت هذا الضريح فى هذا المسجد، فى هذا المكان من القاهرة، لو لم تكن لها علاقة به، سواء كانت هذه العلاقة قد تمت بالوفاة، أو بالزيارة؟!

والآن ماذا عن سيرة هذه السيدة الطاهرة؟

تقول الروايات قديمها وحديثها، ولاتختلف فى ذلك إلا فى طريقة التناول: إنه عندما طرق الإمام الحسين رضى الله عنه باب امرىءالقيس بن على الكلبي طالباً يد ابنته «الرباب» عمت البهجة والفرحة أقطار نفسه، وكيف لا يكون كذلك؟ وهو بهذه المصاهرة الكريمة سيرتبط ببيت محمد ﷺ، فأى شرف وأى عزة تطاول هذا النسب؟

إن طالبَ اليد هو الحسين، ريحانة رسول الله ﷺ، وابن الإمام على وفاطمة الزهراء، رضى الله عنهما.. وكفى بهذا شرفاً وعزة.. وطبيعى والأمر كذلك أن يستجيب والد العروس لهذا القادم الحبيب لتدخل ابنته «الرباب» ـ ذات الحسَب والنسب، والأدب والحُسْن ـ بيت الحسين وتُنجب له فيمن تنجبَ من الذكور عبد الله الذى استشهد مع أبيه فى كربلاء، وعلى زين العابدين، وهو آخر من بقى من أبناء الحسين من الذكور يوم كربلاء وسكينة، وفاطمة النبوية رضى الله عنهم.

وسميت الفتاة الأولى آمنة، تيمناً باسم أم النبى ﷺ، وسُميت الثانية فاطمة تيمناً بأم الحسين فاطمة الزهراء، لكن تغير اسم الفتاة الأولى إلى سكينة، حيث

اعتادت أمها الرباب أن تناديها به لأسباب، منها: الاحترام والتقدير لاسم الجدة العظيمة التى أنجبت البشير النذير محمداً ﷺ، ومنها أن هذه الفتاة الصغيرة اتصفت دون بقية أخواتها بسمات خاصة: هدوء نفس، وطيبة قلب، وطول استغراق، مما جعل نفوس أهل البيت تهفو إليها وتسكن، وترتاح إلى أدبها وذكائها وتستقر.

ولعل هذا المعنى يترجمه شعر والدها الإمام الحسين رضى الله عنه:

لَعَمْرِى إننى لأُحبُّ داراً تكون بها سكينةُ والرَّبَابُ
أحبهما وأبذل كل مالى وليسَ لعاتبٍ عندى عتابُ

وهكذا غلب الاسم المستحدث «سكينة» على الاسم الأصلى «آمنة» ليتلاشَى الأخير. ويبقى على مر الزمان «سكينة» اسماً لها.

وإذا كانت السيدة سكينة قد نشأت فى مهاد العلم والفضل، والحسب والنسب.. فجدها لأبيها هو الإمام علىّ كرم الله وجهه، وأبوها الإمام الحسين، وعمُّها الإمام الحسن، أول أمير للمؤمنين بعد الخلفاء الراشدين الأربعة.. وأنها نشأت فى بيئة حديثة العهد بظهور الإسلام، ووثيقة الرابطة بالجد الأعظم النبى ﷺ، شديدة التمسك بهذا الدين الجديد... فكان من الطبيعى أن تكون عابدة قانتة، حافظة لدينها.

غير أن هذه البيئة المتفردة لم تُنْسِها سماتها المتميزة بها عن غيرها، حيث بدأت شخصيتها تتبلور وهى فى الثالثة عشرة من عمرها، حتى أنه لم يأت موسم الحج فى العام الستين للهجرة إلا كانت هذه الفتاة قِبْلة الأنظار، والمثل الذى يُحتذى به بين فتيات المدينة.

وفى هذا الموسم ـ كما تنقل الروايات قديمها وحديثها ـ شاعَت «الطُّرَّة السكينية» أو «الجمة» أو «القُصَّةْ» أو «الخصلة»، فلم تبق شابة فى المدينة إلا قلدتها فى تصفيف شعرها، واستمرت هذه الحالة من التقليد والمحاكاة فترة من الزمن، حتى تجاوز الفتيات إلى الشباب، فراح يقلد هو الآخر هذه «الجمة السكينية» الأمر الذى انزعج له بعد ذلك عمر بن عبد العزيز حين كان والياً على

المدينة، فكان إذا وجد شاباً يصفف جمته على الطريقة السكينية جَلَده، وأمر بقص شعره، مبرراً ذلك بأن الإسلام لايقبل تشبُّه الرجال بالنساء، حتى لو كن من أفضلهن.

ولا تعنى هذه الطبيعة التى فَطَرَها الله عليها من الحُسْن الذى تُؤْخذ له القلوب أن تكون هذه السيدة الطاهرة منصرفة عن دينها، بل على العكس، حيث كانت تصل فى تعبدها إلى درجه الاستغراق التام، والانصراف الأتم عَمَّن حولها، وهو ما يؤكده قول والدها الإمام الحسين رضى الله عنه، حين جاءه ابن أخيه الحسن المثني بن الإمام الحسن رضي الله عنهم، طالباً الزواج من واحدة من ابنتيه: سكينة، أو فاطمة، فقال له الإمام الحسين: اخترتُ لك فاطمة ، فهى أكثر شبهاً بأمى فاطمة الزهراء، أما سكينة فغالبٌ عليها الاستغراق مع الله، فلا تصلح للرجال..».

وإلى جانب استغراقها وتعبدها ـ وهذا أمر طبيعى كما قلنا ـ كان لها استغراق آخر يترجمه اهتمامها بالأدب وتذوقها له. ولعل هذه السمة اكتسبتها من البيئة المحيطة بها عامة، تلك التى كانت بيئة أدب، ومكانتها كإبنة للإمام الحسين وحفيدة للإمام على، وما كانا عليه كل منهما من بلاغة فى القول وفى الأدب، ربما يميزهما عن آل بيت النبى ﷺ.

هذه البيئة فى عموميتها وخصوصيتها كانت تعنى بالشعر خاصة، وتزداد العناية بهذا الجانب من الأدب، حيث عمدت الدولة الأموية ـ بعد ذلك ـ إلى جعله وسيلة من وسائل الدعاية لسياستها الغريبة، فانصرف الناس إليه، فكان من الضرورى أن يهتم الطرف المقابل، وهو المناهض لبنى أمية من آل البيت، ومنهم ـ أو ندوتهافما بعد ـ السيدة سكينة رضى الله عنها بهذا الضَّرْب من فنون القول.

لم يكن غريباً والأمر كذلك أن يكون مجلس السيدة سكينة رضى الله عنها ـ أو ندوتها فيما بعد ـ عامراً بالأدب، منصرفاً إلى الشعر منه خاصة، وهى خاصية لعلها تكون جديدة، على الأقل بعد الإسلام، حتى إن الدكتورة سعاد ماهر أشارت إليها بالقول: «وإذا كان الغرب يفتخر بندوات نسائه العلمية والأدبية فى القرن الثامن عشر، فإن للعرب أن يتباهوا ويفخروا بندوات نسائه فى الأندلس، التى سبقت

الغرب بعدة قرون، فقد كانت ندوات ولاَّدة بنت المستكفى فى القرن الحادى عشر الميلادى مَجْمَعَ العلماء وأهل الأدب والفن. على أن ندوات «ولاّدة» لم تكن الأولى من نوعها فى الإسلام، فقد سبقتها فى القرن الأول الهجرى ندوات نسائية فى المدينة المنورة. وكان أول مَنْ سنها هى السيدة «سكينه» بن الإمام الحسين، ثم تبعتها بعد ذلك غيرها من سيدات قريش».

ويؤكد هذا القول ما امتازت به ندوة السيدة «سكينة» من العلم الغزير، والأدب الرفيع، والشعر الرقيق، حيث تسجل الروايات أنه كثيراً ما اجتمع ببابها فحول شعراء العربية، وفى مقدمتهم «جرير، والفرزدق، وجميل، وكثير وابن أبى ربيعة». خصوصاً فى موسم الحج من كل عام، طالبين أن تأذن لهم بإنشاد أشعارهم من وراء حجاب.

لقد وصلت إلى أسماع الحاضرات فى ندوة السيدة «سكينة» رضى الله عنها أشعار مجنون ليلى، وتشبيب جميل بُثينة، وغَزَل كُثَيِّرَ عَزَّة، وهجاء جرير للفرزدق، وروايات عمر بن أبى ربيعه الخيالية، وكانت صاحبة الندوة هى الأخرى قائلة للشعر، راوية وناقدة له، خبيرة بضروبه وأوزانه وقوافيه، ذوَّاقة لمعانيه عارفة لأقدار قائليه.

وتحدثنا الروايات القديمة، وهى ما تنقله الكتابات الحديثة، من أن عدداً من الشعراء كان بينهم الفرزدق، وجرير، وجميل. اتفقوا فيما بينهم على حضور ندوة السيدة «سكينة» ليحتكموا إلى رأيها فيمن يكون أشعرهم وأنشد كل منهم شعره، حتى جاء دور جميل، فأنشد قائلا:

لكل حديث بينهن بشاشة ... وكل قتيل بينهن شهيد
يقولون جاهدْ ياجميل بغزوة ... وأى جهاد غيرهن أريد؟
وأفضل أيامى وأفضل مشهدى ... إذا هيج بى يوماً وهن قعود

وهنا قالت السيدة «سكينة» رضى الله عنها لجميل: أنت الذى جعلت قتيلنا شهيداً، وحديثنا بشاشة، وأفضل أيامك يومَ تدافع عنا وتجاهد، ولم تتعد ذلك إلى قبيح.. أنت أشعر الموجودين.

وفى ندوة أخرى حضرها «الفرزدق» مع غيره من الشعراء، بعد أن أتم حجه،

فبادرته السيدة «سكينة» رضى الله عنها قائلة: من أشعر الناس؟ وكأنها بذلك تذكره بما تم فى ندوة سابقة، فتثيره إلى قول ما.. عنده فأجابها الفرزدق باعتزاز: أنا. فقالت له فى حضور الشعراء: فقالت له أشعر منك جرير إذْ يقول:

بنفسى من تَجَنُّبُهُ عزيزٌ ... علىَّ ومَنْ زيارته لمامُ
ومَنْ أمسى وأصبح لا أراه ... ويَطْرُقُنى إذا هَجَعَ النيَامُ

وأسمعها الفرزدق بعض أشعاره، وكانت بالفعل عظيمة المستوى، ولكن السيدة «سكينة» رضى الله عنها كانت تريد أن تستثير لديه جانب التحدى، فقالت له: صاحبك جرير أشعر منك، حيث يقول:

لولا الحياءُ لها جنى استعْبَارُ ... ولزرتُ قبرك والحبيبُ يُزارُ
لا يلبثُ القُرَناء أنْ يتفرَّقوا ... ليلٌ يكرُّ عليهمو ونهارُ

فقال الفرزدق: والله لئن أَذِنْتِ لى لأسمعنَّك ماهوخير منه.. وأسمعها ماهو أجود مما قال من قبل. فقالت له ـ وكأنها تصر على أن يأتى بأحسن ما عنده: جرير أشعر منك إذ يقول:

إنَّ العُيونَ التى فى طَرْفها حَوَرٌ ... قَتَلْنَنَا ثم لم يحيينَ قَتْلانَا
يصْرَعْنَ ذا اللُّبِّ حتى لا حراكَ به ... وهُنَّ أضعفُ خلق الله إنساناَ

كانت تعلم جيداً القدرة الشاعرية للفرزدق، ولكنها كانت ترغب فى استثارته بمقارنته بمن ينافسه، وهو جرير. فهى فى الحقيقة لا تتحيز لواحد منهما دون الآخر.. وإلاَّ فما معنى أن تنقد شعر جرير فى ندوة أخرى، وتقول عن أحد أبياته وهو:

طرَقَتْكَ سيدةُ القُلوب وليس ذا ... حين الزيارة فارْجعى بسلام

بأنه ينقصه الكثير من آداب اللياقة، والخروج على حُسنَ السلوك، حيث يرد أى طارقه فما بالنا لو كانت هذه الطارقة هى سيدة القلوب؟! وقد لاَقَى حكمها عليه رِضاً من الحاضرين.

واشتملت ندوة السيدة «سكينة» على الموسيقى والغناء إلى جانب الشعر. فقد

كانت لها أُذُن تميز بين ضروب الألحان، الأمر الذى جعل اثنين من أكبر المطربين فى زمانهما ـ وهما «الغريض» و« ابن سريج» يحتكمان إلى رأيها فيمن يلحن أفضل، حيث قال لها ابن سُرَيْج: سيدتى، إنى كنت قد صنعت لحناً وحسنته فَنازَعينيه الغريض، فأردنا أن نحتكم إليك.. فأىّ منا قدمتيه فينا تقدمَّ. فقالت: هاته.. فبدأ يغنى هذا البيت كما لحنه:

وعرِّجى علينا ربَّةَ الهَوْدَج إنكِ لا تفعلى تحرجى

فقالت: هاته أنت يا غريض.. فَغَنّاها الغريضُ كما لحنها. فعادت وقالت لابن سريج: أعده، فأعاده. وسألت الغريض أن يفعل ففعل. فسكتت لحظات قالت بعدها: ما أشبهكما باللؤلؤ والياقوت فى أعناق الحسان. لايُدْرَى أيهما أحسن؟!

وهكذا كانت السيدة «سكينة» رضى الله عنها. حتى قال عنها ابن خلكان: «بأنها سيدة نساء عصرها، وأحسنهن أخلاقاً، وأكثرهن تعبداً، وأرفعهن نسباً. وقال عنها الأصفهانى: «إن امرأة تُخْتَارُ على السيدة سكينة لمنقطعة النظير».

ولعل فى هذه القصة ما يترجم ذلك ويتجاوزه إلى وصف سمات شخصيتها بوجه عام والقصة تقول: إنه كان يتوافد على ندوة السيدة سكينة رضى الله عنها شريفات المدينة، وبنات أعرق بيوتها، ولقد حدث ذات مرة أن قالت بنت عثمان بن عفان رضى الله عنه تفخر بأبيها: «أنا بنت الشهيد». وسكت الجميع، فلم تجسر إحداهن أن ترقى بمقام أبيها، أو أخيها، أو زوجها، إلى مقام أمير المؤمنين وصهر النبى وصاحبه، ثالث الخلفاء عثمان بن عفان. غير أن الأنظار اتجهت إلى صاحبة الندوة السيدة سكينة رضى الله عنها انتظاراً للرد، أولا: للحكم على ما قالت ابنة عثمان رضى الله عنه.. وثانياً: لأنها كانت وقتئذ هى سيدة المدينة بلا منازع. ولكنها ظلت صامتة لا ترد ولا تعلق على قولة بنت عثمان، حتى حان موعد الصلاة وارتفع صوت المؤذن: «أشهد أنْ لا إله إلاَّ الله، وأشهد أن محمداً رسول الله»، وعندئذ نظرت السيدة سكينة رضى الله عنها إلى بنت عثمان رضى الله عنه، وقالت موجهة الحديث إليها: «أهذا أبى أم أبوك؟» وسكتت بنت عثمان رضى الله عنه لأنها لم تجد رداً عليها.

تلك هى السيدة «سكينة» بنت الإمام الحسين، رضى الله عنهما، خير مثال للمرأة العربية المسلمة المؤمنة المثقفة.. التى استطاعت أن تخلّد اسمها على مر الزمن.

* * *